الحياة الاجتماعية في الحيرة

مقال مستل من كتاب « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

تأليف يوسف رزق الله غنيمة

وزير مالية العراق سابقاً

ليس من السهل الهين ان يقدم المؤرخ على وصف الحياة الاجتماعية ويصور بقلمه مناظر المعيشة اليومية في بلد انطوت اخبارها منذ مئات من السنين ودالت دولتها قبل اربعة عشر قرناً وعبرت الايام بحجافل الخطوب على آثارها فمحت عمرانها ودرست معالم عزّها ولم يرو لنا الرواة من انباء لجيالها الغابرة الا نتفاً مبعثرة بين مطاوي الشعر وثنايا النثر ولهذا تأتي ولا جرم هذه الصورة ناقصة مبتورة ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله

صور من اجتماعيات الحيرة

كانت تحية الملوك عندهم عم صباحاً وانعم صباحاً وابيت اللعن . وقد وردت هذه التحية في كثير من اخبارهم سواء كانت مجملة كما قال الحرث بن ظالم للنعمان بن المنذر لما دخل عليه في قصر ابن مقاتل [1] او منفردة انعم صباحاً لوحدها وابيت اللعن لوحدها والعبارة الاخيرة اخص بالملوك وقد جاءت في كثير من اشعارهم قال الذبياني يعتذر الى النعمان ويمدحه [2]

أتاني ابيت اللعن انك لمتني وتلك التي اهتم منها وانصب

ولما جاء الاسلام عوض هذه التحيات بين المسلمين بغيرها واكتفوا بقولهم « السلام عليكم »

وكان من عادة ملوك العرب ان تزاد خرزة في تاج الملك كلما مضت سنة من سني ملكه . وكان يقال لتلك الخرزات خرزات الملك ولما بلغت خرزات النعمان بن المنذر اربعين اشخصه كسرى ابرويز الى حضرته لهنات نقمها عليه ثم امر بقتله واياه عنى لبيد بن ربيعة بقوله:

رعى خرزات الملك عشرين حجة وعشرين حتى قيد والشيب شامل [3]

وكان ملوك الحيرة يهدون الى فرسان العرب الرماح كما يهدي اليوم الملوك الى القواد سيوفاً .

---

(١) الاغاني ١٠ : ٢٨ (٢) شعراء النصرانية ٦٥٥ (٣) الثعالبي : ثمار القلوب ٤٤٤ .

يوسف رزق الله غبلة

وزير مالية العراق سابقاً وصاحب كتاب « نجد والقضية والمملكة العربية »

الذي نشرنا عنه هذا المقال

منتطف أكتوبر ١٩٣٢ أمام صفحة ٢٨٩

فبعث النعمان بن المنذر بأربعة رماح فأخذ ابو براء عامر بن مالك رمحاً وسلمة بن طارقة اللحام رمحاً (وهو جد الاحطل) وانس بن مدركة رمحاً وعمرو بن معديكرب رمحاً [١] . وكان المناذرة يقابلون الناس من وراء ستور تحجز بين الوزائر والملك فكلما كان الوافد على الملك وضيعاً زاد عدد الستور حتى يبلغ سبعةً وكلما زادت مكانته قلّ عددها حتى ان وفيمي المنزلة كانوا يقابلون الملك بلا ستر وربما حجرت هذه الستور الوافدين المصابين بالجذام فقط

وكانت الوفود تفد من قبائل العرب على المناذرة وكانوا يتخذون لهم عند انصرافهم مجلساً يطعمون فيه ويشربون وكان اذا وضع الشراب سُقي الملك فمن بدىء به على أثره فهو افضل الوفد . وكانت القينة تقوم بالسقاية وتفضل من الوفد اشدهم فمن ذلك ما نقله ابو عبيدة عن النعمان بن المنذر فقال قدم عليه وفود ربيعة ومضر بن نذار وكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطام بن قيس والحوفزان بن شريك اليكريان وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس ابن عيلان عامر بن مالك وعامر ابن الطفيل ومن تميم قيس بن عاصم والاقرع بن حابس فلما انتهوا الى النعمان أكرمهم وحباهم . واقام لهم مجلساً عند انصرافهم على عادته . فبعد ان سُقي الشراب قامت القينة تنظر الى النعمان من الذي يأمرها ان تسقيه اولاً وتفضله من الوفد فنظر في وجهها ساعة ثم اطرق ثم رفع رأسهُ وهو يقول :

سقي وفودكِ ما أنت ساقيتي ... فابدي بكأس ابن ذي الجدين بسطام
اغر يتبعه من شيبان ذو لفف ... حامي الذمار وعن اعراضها رامي
قد كان قيس بن مسعود ووالده ... تبدا الملوك بهم ايام ايامي
فرضوا بما فعل النعمان في مضر ... وفي ربيعة في تعظيم اقوام
هم الجحاجح والاذناب غيرهم ... فارضوا بذلك او بوؤا بارغام [٢]

وكانوا اذا ارادوا ان يقيموا عهداً يضعون اليد باليد قال الملك عمرو بن هند لعوف بن محنّم لا اعفو عن مروان القرظ بن زنباع حتى يضع يده في يدي قال عوف يضع يده في يدك على ان تكون يدي بينهما . فاجابه عمرو بن هند على ذلك وهذه اليد الثالثة بمثابة وساطة وحكم عند وقوع لغلاف او كما نقول اليوم الاتفاق الثلث [٣] ومن عاداتهم اذا توسط الملك بين قبيلتين او اكثر لعقد صلح او ازالة ضغائن اخذ من كل قبيلة رهائن فمتى التوى احد منهم بحق صاحبه اقاد من الرهن [٤]

---

(١) الاغاني ٧ : ١٦١ (٢) السمط ٢ : ١٧١ ولا بد من التنبيه هنا ان كثيراً من اشعار المناذرة وضعها اناس من القينة على السنة الملوك او على السنة خصومهم لرفع شأن قبائلهم بهذه الصورة . وتظهر صحة الوضع والتلفيق على هذه الابيات ايضاً (٣) الميداني : في شرح مثل «ادرك من عوف بن محلم» ٢ : ٣٢٣ (٤) الاغاني ٩ : ١٧٢

الحرب

يجدر بنا هنا ان نبحث بنظرة الى حروبهم فقد كانوا يقسمون جيشهم ميمنةً وميسرةً وقلباً كما يقسم الجيش اليوم في تعبئته[1] وكان للنعمان بن المنذر خمس كتائب وهي :

١ : الرهائن فانهم كانوا خمسمائة رجل رهائن قبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ثم يجيء بدلهم خمسمائة اخرى وينصرف اولئك الى احيائهم فكان الملك يعتزو بهم ويوجههم في اموره ويحق لنا ان نسميهم نظراً الى هذا الوصف العسكر الخاص اما تبديلهم فكان يأتي للملك عند رأس كل سنة وذلك ايام الربيع ووجوه العرب واصحاب الرهائن وقد سيروا كلاً عندهم ذوو الآكال فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون الرهائن وينصرفون الى احيائهم

٢ : الصنائع وهم بنو قيس وبنو تيم[2] اللات ابني ثعلبة وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه ويسوغ لنا ان نسميهم حرس الشرف

٣ : الوضائع فانهم كانوا الف رجل من الفرس يقسمهم ملك الملوك (اي الملك الساساني) بالحيرة تجدة لملك العرب وكانوا يقيمون سنة ثم يأتي بدلهم الف وينصرف اولئك

٤ : الاشاهب[3] فهم اخوة ملك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من اعوانهم وسموا الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه

٥ : دوسر فانها كانت اخشن كتائبه واشدها بطشاً ونكاية وكانوا من كل قبائل العرب واكثرهم من ربيعة سميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالنقل لثقل وطأتها .[4]

وقد اتخذ الحيريون كل سلاح في الجاهلية من سيوف ورماح ونصال واقواس وسهام ودروع وخوذ وادراق مما جاء وصفه في كتب اللغة والاشعار واخبار حروبهم[5]

وفي ايام الفتح الاسلامي استعمل الحيريون الخزازيف ورموا بها المسلمين من القصر الابيض . وكان رأس القصر ممثلاً رجالاً متعلقي المخالي يرمون بهذه الخزازيف وهي المداحي من الخزف[6]

---

(١) الطبري ٢:١٥٤ (٢) اخذنا وصف كتائب النعمان من مجمع الامثال للميداني ١:٧٨ في مثل « ابطش من دوسر » ولكن ابن الاثير في كامله ١:٢٦٨ يقول ان الوضائع كانوا تيه المشائخ من العرب وغلطه الاصح (٣) ترى الاشاهب مشتقة من الشهبا وهي الكتيبة التي يتبعها ملك الفرس الى النعمان الاول اما تسمية العرب اسم الشهبا كما جاء في المتن فلا نظنه صحيحاً بل نذهب الى ان الكلمة فارسية مؤلفة من لفظين فارسيين وهما « شاه » بمعنى « الملك » و « پاي» بمعنى القدم ومنادها «موطأ الملك» (٤) وكذلك نقول في معنى « دوسر » فانها مؤلفة من « دو » ومعناها « اثنان » « وسر » ومعناها « رأس » (٥) راجع المخصص لابن سيده ١٦:٦ — ٩١ (٦) الطبري ١٢:٤

ويظهر ان فرسانهم كانوا مسلحين بالسلاح الخفيف في محاربتهم الروم الى جنب الفرس[١] ومعظم وقائعهم كان اما انتصاراً للفرس او للغزو والسلب وعلى كل حال فانهُ ليس بمستبعد التدريج وتثبيت سيادتهم ومدّ ملكهم . وكانوا يرفعون شحمةً امام الملك في الحرب[٢] وكانت فدية الملك اذا اسر الف بعير ومثلها ديّة ابنه اذا قتل . وقد دفع سيار بن عمرو بن جابر الفزاري او اخوه الحارث للملك الاسود دية ابنه شرحبيل الف بعير[٣] وكانوا يرهنون القوس بالدية حتى يتم دفعها وفي ذلك قال شاعرهم :

ونحن رهنا القوس ثمة فوديت بألف على ظهر الفزاري اقرعا
بعشر مئين للملوك وفى بها ليحمد سيار بن عمرو فاسرعا[٤]

آن لنا بعد ان اثقلنا السمعَ بالحرب والضرب وقبضنا النفس بالكراع والسلاح والغزو ان نطرق موضوعاً يزيل الكربة ويسري الغمّة . واي موضوع احق بهذه المزية من البحث في

المرأة

تظهر لنا هذه المرأة معتزلة اجتماعات الرجال تتخمر وتأكل وحدها وقد توصلنا الى هذه الاستنتاجات من مرويات الشعراء والمؤرخين . قال النابغة الذبياني لما رأى المتجرّدة امرأة النعمان وقد سقط نصيفها وهو الخمار فاستترت بيدها وذراعها فكادت تستر وجهها لعيالها

سقط النّصيف ولم تُرد اسقاطَه فتناولتهُ واتّقتنا باليد[٥]

ولمّا استزار عمرو بن هند ملك الحيرة عمرو بن كلثوم وامه دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت امه ليلى على هند في قبة من جانب الرواق فاكل الرجال وحدهم واكلت النساء في قبتهن[٦]

ومن البراهين على صحة قولنا في تستر المرأة الحيرية ما جاء في ابيات لعدي ابن زيد :[٧]

بنات كرام لم يربن بضرة دُمى شرفات بالعبير روادعا
يسارقن من الأستار طرفاً مغتراً ويبرزن من فتق الخدور الاصابعا

وكانت الحيرية تميل الى الخضاب والطيب والكحل والتجمل والتزين وما اكثر حججنا على هذه الاقوال ومنها قول النابغة في المتجرّدة[٨]

بمخضبٍ رَخْصٍ كأنّ بنانه عَنَمٌ يَكادُ من اللطافة يُعْقَدُ

---

(١) سايكس : تاريخ فارس بالانكليزية ١ : ٥٠٣ (٢) ابن الاثير ١ : ٢٢٥ (٣) الاغاني ١٠ : ٢٤ (٤) الاغاني ٣ : ٣١١ — ٣١٢ (٥) الاغاني ٩ : ١٧٥ (٦) الاغاني ٩ : ١٧٥ (٧) الاغاني ٢ : ٣٨ (٨) الاغاني ٩ : ١٥٧

ومن ذلك ما جاء في ابيات لعدي بن زيد [١]

ينفح من ارداف المسك والمندي والغار ولبنى قمص

وقال عمرو بن معدي كرب في الكحل الحاري [٢]

كأن الاغد الحاري منها يسيف بحيث تبتدر الدموع

وأما تجملهن وزينهن فقد جاء عنهما الشيء الكثير في الاشعار ومنها :

وحر الزبرجد في نظمه على واضح الليت زان العقودا
يفصل ياقوته درّه وكالجمر ابصرت فيه القريدا [٣]

وقال عدي بن زيد [٤]

واحور العين مربوب له غسن مقلد من نظام الدر قصارا

وقوله في قصيدة أخرى [٥]

زانهن الشفوف ينضحن بالمسك وميث سفانق وحرير

وكقول النابغة في المتجردة [٦]

والنظم في سلك يزين نحرها ذهب ترقد كالشهاب الموقد

وكقول النابغة ايضاً [٧]

ترائب يستضيء الحلي فيها كجمر النار بذر بالظلام
كأن العذر والياقوت منها على جيداء فترة البغام

ومما يدل على تزينهن بمختلف الحجارة الكريمة قول المرقش الاصغر في جيئة فاطمة بنت المنذر :

تحلين ياقوتاً وشذراً وصيغة وجزعاً نظارياً وودعاً نواثما [٨]

وقول لقيط بن زرارة : [٩]

فيهن أترجة نضح العبير بها تكسي ترائبها شذراً ومرجانا

وقد استعملت الحيريات الوذيلة وهي مرآة القضة وقال المرقش الأصغر مشبهاً بها نعومة خدّ حبيبته فاطمة بنت المنذر :

أرتك بذات الضال منها معاصماً وخداً اسيلاً كالوذيلة ناعما [١٠]

وقد عرف العرب هذه المرايا ومن اسمائها عندهم السجنجل قال امرؤ القيس في معلقته [١١]

---

(١) شعراء النصرانية ٤٧٠ (٢) معجم البلدان مادة « حيرة » (٣) الاغاني ٢ : ١١٨
(٤) شعراء النصرانية ٤٦٩ (٥) كذلك ٤٤٥ (٦) كذلك ٦٤٣ (٧) كذلك ٧١٣
(٨) الاغاني ٥ : ١٨٥ (٩) الاغاني ١٩ : ١٣١ (١٠) كذلك ٥ : ١٨٤
(١١) شرح المعلقات ص ٢٢ الترائب جمع تربة وهي موضع القلادة من الصدر

مهفهفة بيضاء غير مُنَاضفة ترائبها يستوكل كالمُسْحَنْشَل

وكانت البنات يتزوجن وهن حديثات السن . فزفت هند بنت النعمان بن المنذر ابن امرىء القيس الى عدي بن زيد وهذا سيشفه العدواني بعشرة سنة [١] وكان من عادة ملوك الحيرة شديدي التمسك بالنعرة القومية لا يريدون زواج بناتهم من الاعاجم حتى ان النعمان ذلك الملك الذي بعثه كسرى فاطلب من بناته واخواته وبنات عمه واهل زوجات لأمراء البيت الثالث من الساسانيين لأن العرب كانوا يتكرمون عن العجم [٢] وكانت بعض المؤسرات يتزوجن من شتى من الرجال [٣] وكان يقصد من المصاهرة بين رؤساء القبائل والملك انقطاع الحروب وازالة الضغائن من بينهم ولهذه الغاية خطب الحرث بن ابي شمر جبلة بن الحرث الاعرج الغساني الى المنذر بن المنذر اللخمي ابنته هندا على ما رواه ابن الاثير [٤]

وكان تعدد الزوجات معروفاً بين اهل الحيرة ليس بين المجوس او من كان على دين الجاهلية بل حتى بين المسيحيين منهم. قال المطران ادي شير [٥] عن اصلاح الجاثليق مار آبا [٦] ان الشقاق بقل من الكنائس بهمة هذا الجاثليق غير ان الشرور المتولدة منه كانت باقية فان كثيراً من المسيحيين تراخت سيرتهم وضعف ايمانهم فاقتدوا بالمجوس واليهود والوثنيين وتزوجوا نظيرهم بأمرأتين او بأمرأة الاب او بعمتهم او بخالتهم او كنتهم او بأمرأة اخيهم وهلم جرًّا فأصدر مار آبا منشوراً عنوانه «تدبير الافعال الصالحة» حرَّم فيه هذه الافعال [٧]

مآكل الحيريين

أما حياة الرجال في الحيرة فقد تطرقنا الى مهنهم وحرفهم في البحث في الصناعات وآلات الطرب والعزف والأغاني ولكن هناك مناحي أخرى من حياتهم نود معالجتها هنا . فانهم كانوا يقيمون الافراح في اعراسهم وينشدون الاغاني ويغنون الأصوات وكانوا يقولون عن مغنيهم حنين انهُ بطة اعراسهم [٨] وكانوا يقيمون الولائم والمآدب ويضعون طعاماً من السمك وما صيد من وحشها من ظباء ونعام وأرانب وحبارى وغيرها [٩] وكانوا يخبزون خبز الرقاق قال عدي بن زيد وهو بالشام يتشوق الى الحيرة [١٠] :

(١) الاغاني ٢:٣٠ (٢) شعراء النصرانية ٤٦٩ (٣) الاغاني ١٦ : ٩٩ (٤) الكامل ١ : ٢٢٤ (٥) تاريخ كلدو آثور ٢ : ١٧٩ (٦) جاثليق المدائن من سنة ٥٤٠ — ٥٥٢ (٧) ثابو : كتاب الشهدوسات ٨٠ — ٨٥ (٨) الاغاني ٢ : ١٢٠ (٩) الاغاني ٢ : ١٢١ (١٠) الاغاني ٢ : ١١٩

ليت شعري متى تحب بي النـ ـ ـقة بين الدير والسمرين
حتّ ركوة وخبز رقاق وبقولاً وقطعة من لبون

وجاء في اخبار رقعة ليس على الفرات ان خالد بن الوليد وقف على الطعام وقد المسلمين قد نفلكموه فتمشى به المسلمون وجعل من لم ير الرقاق يقول ما هذه الرقاع البيض ...[1] ومن مآكلهم المنيرة وهي اكلة تطبخ باللحم وقد أعدّها حنظلة الطائي وقدمها الى المنذر ابن ماء السماء عند ما اضافه في يوم كان يصيد فيه[2]. ومنها الهلام بضم الهاء او فتحها[3] طعام من لحم مجلة بجلدها او من لحم مهر وقيل من مرق الكباج المبرّد المصفّى من الدهن[4] ومنها ايضاً الأقط وهو الجبن المتخذ من اللبن الحامض. جاء في الاخبار كان زيد بن عدي من العرب وظيفة موظفة في كل سنة مهران اشقران يحملان له هلاماً والكمأة الرطبة في حينها واليابسة والأقط والأدم وسائر تجارات العرب[5]

وعلى ذكر الكمأة نقول ان الحيريين كانوا ولعين بأكلها فيخرج الرجال والنساء والاولاد الى البرية لاجتنائها ويتهادونها رطبةً ويابسةً وقد جاء عن عمرو بن عدي انهُ خرج مع الصبيان لاجتناء الكمأة وكان الغلمان اذا اصابوا الكمأة الطيبة اكلوها واذا اصابها عمرو جناها ثم اقبلوا الى منازلهم يتعاودون وهو معهم يتلعبم ويقول مخاطباً خالد جنيتة الأرض:

هذا جنـاي وخياره فيه إذ كل جان يده الى فيه[6]

وجاء في اخبارهم[7] ان امرأة كانت تجني الكمأة بأدنى مياه بني دارم فنهيت وأخبرت سيدهم دوارة بن سدس باقبال بني عامر وعسكر النعمان في تلك الحرب المعروفة عند العرب بيوم رحرحان

والتمر من طيب ما كل الحيريين لا بل العراقيين طرّاً. وقال شريح ابن اوس يهجو ابا المهوس الاسدي:[8]

وعيرتنا تمر العراق وبره وزادك . . . . . .

وعرفوا اكل الخبيص قال الفرزدق[9]

تفيهق بالعراق ابن المثنى وعلم قومه أكل الخبيص

هذه نبذة موجزة في بعض ما كل الحيريين اتينا على بيانها وهناك طائفة كبيرة من المآكل كاللحوم المشوية لا سيما لحم الناقة والابل ومنها السويق والكوامخ وأنواع الحلواء كالفالوذق واللوزينج والزلابية والقطائف وغيرها مما عرفه العرب عامة او مما أخذه

(١) الكامل لابن الاثير ٢:١٦٣ (٢) شعراء النصرانية ٨٩ (٣) اللسان والمحكم والتهذيب والتكملة (٤) تاج العروس (٥) الاغاني ٢ : ٢٧ (٦) المحبر ٢ : ٣٠ (٧) ابن الاثير ١ : ٢٣٢ (٨) كتاب الحيوان للجاحظ ٦ : ١٢٩ (٩) كتاب ٥ : ٦٤

فريق منهم من الفرس او من غيرهم مما جاء ذكره في كتب اللغة او الادب (١)

وزع الحيريون الى الترف والفروسة في آن واحد وأمر نتبان الحيري مشهور قال الاصبهاني (٢) كان حنين غلاماً يحمل الفاكهة بالحيرة وكان لطيفاً في عمل التحيات فكان اذا اهل الرياحين الى بيوت القيان والمياسير واصحاب القيان والمغنين في الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قده وحلاوته وخفة روحه استحلوه وأقام عندهم وخفّ لهم فكان يصنع الغناء ويشهيه ويغنى اليه ويستمعه ويطيل الاصغاء اليه حتى غدا منه اصوات فأسمعها الناس. وكان مياسير اهل الحيرة يتفننون في اتخاذ الاثاث النفيس والرياش الثمين فكانوا يتخذون بالرقم من افرش اشياء طريفة (٣) ويتخذون اواني الذهب والفضة للاكل (٤) والقلال للماء والأواني للخمر من صنع الحيرة نفسها ويخدمهم في مآدبهم الاحرار والعبيد ويجيبون بالرياحين (٥)

ونام ذلك القوم على فرش الحرير فوق الاسرة المجللة بالكلل قال عدي بن زيد (٦)

ثانياتُ قطائف الخزّ والديـــباج فوق الخدود والانماط

وقال ايضاً (٧) :

بينما هم على الأسرّة والانمـــاط افضت الى التراب الجلود

وقال النابغة الذبياني (٨)

ذاصَتْ تتراءى بين سَجْفَيْ كِلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالاسعد

وكان من عاداتهم اتخاذ المجامر للبخور قبل النوم (٩) ويبخرون أجسادهم وشعور رؤوسهم ولحاهم (١٠) واستعملوا المسك والعنبر قال شاعرهم (١١)

تنفح بالمسك ذفاريهم وعنبر يقطبهُ القاطب

ويتباهون بتقديم الخمر الى الضيوف قال الشاعر في مدح المنادرة (١٢) وقهوة ناجودها ساكب

« للفضل تتمة »

---

(١) راجع المخصص ٤ : ١٢٥ — ١٢٩ و ٥ : ١٠ و ١٤ و ٢٥ والعقد الفريد ٤ : ٢٩٢ وكتاب الحيوان للجاحظ والسابق على السابق شارس الشدياق ٩٢

(٢) الاغاني ٢ : ١١٨

(٣) الاغاني ٢ : ١٢١

(٤) الاغاني ٩ : ١٦٥

(٥) الاغاني ٢ : ١٢١

(٦) معجم البلدان مادة « انماطا »

(٧) شعراء النصرانية ٤٧١

(٨) كذلك ص ٦٤٣

(٩) الاغاني ١٦ : ٩٩

(١٠) كذلك ١٩ : ١٣١

(١١) معجم البلدان مادة « دبرهند الكبرى » (١٢) كذلك